من الميثولوجيا الهندية

• الدكتور محمد شوقي محمد خليفة •
رئيس شعبة الدراسات الفولكلورية
مركز دراسات الخليج العربي

تعتبر الهند اول بلد في العالم ما زالت الميثولوجيا فيه حتى الان ، مجسدة في تعاليم دينية وملاحم وقصص وحكايات يتحرك ابطالهـا في وجدان كل طائفة من الطوائف الهندية : السيخ والهندوس .

يا له من اسم شاعرى يطلق على احد المدن « منطقة المياه المقدسة» هذه هي (امر يتسار) ، ولا توجد مدينة بالتأكيد مثل (آمر يتسار) في العالم حيث يعيش فيها ٧٠٠٠٠٠ نسمة من بينهم ٤٠٠٠٠٠ لم يذهبوا مطلقا للحلاق لقص شعر رؤسهم او ذقونهم ، بالاضافة الى ذلك فكل منهم يحمل اسم سنج ، فاحد السائقين يمكن ان يكون اسمه (جاسوانت سنيخ) واحد الباعة ربما يدعى (آمارجيت سنج) وتقرأ لافته احد الاطباء ويدعى (داليب سنج) . فكل مولود من طائفة السيخ يضاف الى الى اسمه (سنج) وهذا الاسم يعني تقريبا الاسد . ومعظم طائفة السيخ يتركون شعور رؤوسهم ولحاهم تنمو دون تهذيبها او قصها . وهذا يعني عندهم (كيسا) وهي احد التعاليم الرئيسية الخمسة لديانة السيخ . والتعاليم الاربعة الاخرى هي :

١ ـ حمل مشط تحت العمامة التي يلبسها كل فرد من جماعة السيخ وهذا معناه (كيربان) .

٢ ـ وضع حلقة معدنية حول الذراع للدفاع بها عن النفس وهذا معناه (كــارا) .

٣ ـ يجب ان تكون الملابس الداخلية ذات قياسات معينة وهذا مايسمى بـ (كــاك) .

وطائفة السيخ تعيش في الهند مع الطوائف الاخرى وهم المسلمون والهندوس . وكان (ماناك) هو احد « الرسل » الاثنا عشر الذي يعظم ويبجل حتى الان من طائفة السيخ وقد ابتدع دينا جديدا يعتبر اتجاها بين الاسلام والديانة الهندوسية . وقد هاجم في تعاليمه الدينية الديانة الهندوسية ذات الخاصة الطبقية وزواج الاطفال وحرق الارامل .

والمكان المقدس الذي يقصده السيخ هو المعبد الذهبي حيث طليت جدرانه بالذهب الخالص ويحتوي على ٢٢٠ رطل من الذهب . والمعبد يفتح يوميا لمدة ٢٢ ساعة حيث تمارس به طائفة السيخ طقوسها الدينية المنشدين الذين يغنون من كتاب السيخ المقدس .

ومن بين معتقدات طائفة السيخ الا يترك جوعان او عريان لذلــك تجهز اطعمة خاصة بجدار المعبد يتناولها المصلون مجانا وتتكون من : فاصوليا خضراء وخبز وحلوى .

ولعل اشهر الملاحم التي تؤمن بها طائفــة الهندوس واعظمها هي « الرامايانا » التي يبجلها الهندوس ويتناقلون بعضا من ابياتها البالــغ تعدادها ٤٣ الف بيت مزدوج . ويقال انها صيغت قبل الميلاد بثلاثــة قرون صاغها رجل يدعى « فيلميكي » سمعها من احد القديسيين عــلى شكل حكاية ، فنظمها شعرا . وتناقلها من بعده المنشدون عبر العصور ينشدونها على الناس فتأخذ بافئدتهم ويأسرهم سحرا احداثها .

منذ زمن بعيد يحتفل الهندوس كل سنة بمناسبتين دينيتين مــن صلب ملحمة « الرامايانا » الاولى هي « الدوشار » ويحتفلون بها في اليوم الاول من شــهر تشــرين الاول (اكتوبر) . والثانيــة هي « الديوالي » ويحتفلون بها بعد عشرين يوما من المناسبة الاولى اى في العشرين مــن الشهر ذاتــه .

فما قصة هذه الملحمة الخالدة ؟ ولماذا ما تزال الاسطورة حيــة في افئدة الملايين في عصر الآلــه والتقنية والتطور العلمي البعيــد عــن الغيبيات والخرافــات .

ولادة « رام » ونشأته وزواجه بـ « سيتا »

لم ينجب الملك «داشارا اذا» ـ او راذا داشرات «كما يسميه الهنود اولادا على الرغم من انه تزوج ثلاث مرات وذات يوم خرج الملك الى ضفة النهر وحيدا حزينا، فظهر له احد الالهة على هيئة هيئة رجل واعطاه شراب آلهيا مخصبا للانجاب اعطى الملك زوجته الاولى « كوشلات » نصف الشراب ، ووزع الباقي زوجتيه الاخريين « سوميترا » و «كسيكاني» . فولدت كوشلات الابن الاكبر « رام » الذي حاز على الجزء الاكبر من القدسية . وولدت « سوميرا » ولدين هما « لاكشمان » «وشاتروجان» اما « كسيكاني » فانجبت « رامات » وكانوا جميعا اذكياء متفوقين تلقوا قدرا كبيرا من العلم ولمعرافة . ونشأوا متحابين متعاضدين في رعاية الملك الاب الذي بارك هذا الحب ، واغدق عليهم الثروة والجاه ، وجلب لهم الاساتذة والمدربين حتى اصبحوا فرسانا لا يقهرون .

تألق نجم رام ، واستبانت فيه المقدرة الخارقة التي بثتها فيه الالهة وقد حازت امه الجزء الاكبر من شرابها . فتمكن وهو في السادسة عشرة من قتل « راكشاسا » الظالم المتجبر الذي بطش بالناس في المملكة المجاورة ، وكان حاكما مستبدا صنديدا لا يشق به غبار .

وفي المملكة المجاورة الاخرى التي يحكمها « راجا جاناك » كان الناس يكرهون البنات ويتخلصون منهن وهن صغيرات بطرق شتى . كان رب الاسرة حين تلد امرأته بنتا يتجنب رؤية الناس الى ان يتمكن من التخلص من الوليدة . على ان جاناك وهو الحاكم العادل كان يحاول عبثا ان يبدل من نظرة شعبه الى البنات ويصدر القوانين التي تحرم التخلص منهن . ولكن احدا لم يلتفت لتلك القوانين لان الناس كانوا يعتقدون بلعنة الاناث واتصالها بغضب الالهه ولا مجال لتبديل قناعتهم هذه .

وذات يوم كان جاناك يحرث الارض فاذا به يشاهد والمحراث في يده يشق الارض ، وليدة ملقاة على خط سير المحراث فيلقفها ويضمها بحنان ويهرع بها الى قصره عاهدا الى زوجته بتربيتها والعناية بها . شبت الطفلة وغدت صبية بديعة الحسن اشتهر جمالها في كل الاصقاع. فاخذ الامراء والملوك يتوافدون لخطبتها من الملك جاناك ، الذي حار في امره لكثرة الخطاب . ثم خطر له ان يقيم مباراة لهم ، فمن استطاع منهم تقويم اعوجاج قوسه الفولاذية كانت « سيتا » وهو اسم الفتاة من نصيبه. وكان ان فاز رام بالعروس الجميلة وعاد بها الى بلاده .

كيف نفـــي رام

حين وصل رام المنتصر وزوجته سيتا ، قرر الملك راذا داشرات ان يحتفل بالمناسبة باعلان ولده البكر رام ملكا خلفا له . غـير ان احـدى المربيات راحت توغر صدر الزوجة الصغرى كشيكاني : « عندما يصبح رام ملكا فسوف يضطهد ولدك . لماذا لا يكون بارات هو الملك » . فتجيب كيساني : « ولكن رام شاب شجاع شهم وسيكون عادلا » . فتقول المربية: « ومن يضمن لك انه لن يتغير بعد ان يتسلم الملك ؟ » .

وما لبث ان نجح تدبير المربية ، فراحت الزوجة تفكر ، ثم تتذكر انها لما قبلت الملك « راذا » زوجا لها اشترطت ان يلبى لها طلبين في حياته. وحين يختلي بها الملك تبدي الاغراض والممانعة فيسألها مابها فلا تجيب، فيلح فتقول : « لم تريد ان تنصب رام ملكا وليس بارات ابني ؟ » . فيقول : « رام هو البكر وهو شاب حكيم شجاع وسوف يحكم الناس بالعدل » . واذ يصر الملك على اختياره ، تسأله تنفيذ الطلبين ، فاذا هما : ان ينصب بارات ملكا ، وان ينفي رام الى الغابة لمدة ١٤ سنة . فيسقط في يد الملك ولا يفلح في اقناع زوجته بالتخلي عن الطلبين او عن الاخير منهما على الاقل. فيكون ما ارادت . ويعلن انه سينصب بارات ملكا وينفي رام .

راوان يخطف سـيتا

يشد رام الرحال الى الغابة ، فتتعلق به سيتا : « الحياة الخشنة القاسية معك احب الي من القصور والرفاة يا زوجي الحبيب . سأرحل معك » . وكذلك يرحل معهما اخوه لاكشمان ، ويحيا الثلاثة حياة بدائية قاسية وسط الاهوال والحيوانات المفترسة .

في غضون ذلك يعود بارات واخوه شاتروجان من رحلة صيد طويلة، فيفاجأ بقرار تنصيب بارات ملكا ونفي رام . ويعلم بارات ان القرار اتخذه والده بتأثير كسيكاني أمه . فتثور ثائرته ويصب جـــام غضبه عليها . ويرفض ان يكون ملكا ، فكيف يغدر باخيــه الحبيب ؟! وتحاول امه ان تهدىء انفعاله دون جدوى . فيرحل مع اخيه الى الغابة يبحثان عن رام ، وكان يعيش وزوجته واخوه في كوخ قرب النهر . يطلب منه بارات ان يعود

فيرفض رام : « اعطيت ابي وعدا ان يستمر نفيي ١٤ سنة . وسأفي بالوعد يا اخي الحبيب . فعد الى مملكته وكن عادلا مع شعبك » . يبكي بارات بين يديه ، ويسأله ان يستجيب له ويعود . ولكن رام يصر على الرفض. عندها يصرخ بارات : «اذا انتهت السنوات الاربععشرة بتمامها ولم تكن في طريق العودة الي فسألقي بنفسي في النار ». ويعده رام بالعودة بعد تمام المدة ، ويكر بارات واخوه راجعين بعد ان ودعا اخويهما وداعا مؤثرا .

يتعود رام حياة الغابة ، ويصادق الحيوانات . وتمضي الايام وهو سعيد مع زوجته واخيه . وذات يوم كانت الاميرة « سوربا ــ ناخا » اخت الملك « راوان » ملك « لانكا » تجوب االغابة في رحلة صيد ، فرأت رام فاحبته. وتابعته عن بعد لتجده وزوجته سيتا يعيشان بسعادة ، يسبحان معا ويلاحق احدهما الاخر قافزين بين الجداول والاشجار . فتأخذها الغيره من سيتا . ولدى عودتها تخبر اخاها الملك راوان بخبر سيتا الجميلة التي تعيش في الغابة . وتغريه ــ وهي العالمة بولعه بالنساء ــ بان يخطف سيتا ليخلو لها الجو مع رام .

ومرة رأى رام غزالا جميلا يعدو في الغابة قرب الكوخ ، فطلبت منه سيتا ان يصطاده لتطهوه له للغذاء . فقال رام : « هو ليس غزالا بل شيطانا تقمص هذه الصورة لامر ما» ولكنها تلحعليهفيخرجليطارد الغزال.وبينما سيتا ولاشمان فيالكوخ ينتظران عودةرام اذ بهما يسمعانصوتا كصوت رام يستغيث : « ساعدني يالاكشمان . النجدة » فتفزع سيتا الى لاكشمان : « اذهب وساعد رام ، هو في مأزق » . ولكن لاكشمان يجيب : « ليس الصوت صوت رام الحقيقي . هي لعبة من الشيطان لغاية لا ادركها » ولكنها تستحثه وقد بلغ بها الخوف كل مبلغ : «الا تريد ان تساعد اخاك؟» وهكذا يتجه لاكشمان خارجا من الكوخ . وقبل ان يبتعد يضع حول الكوخ خطا من يتجاوزه يحترق وبعد لحظات تسمع سيتا صوت استغاثة ملهوف ، فتخرج لتبين الامر فتجد شخصا ملقى على الارض ، ويتعلل بعجزه عن الحركة من شدة الجوع . تدخل لتحضر له بعض الطعام واذ تخرج وتقترب منه يشدها خارج الخط الذي رسمه لاكشمان . عندئذ ينتزع ملابسه البالية فاذا هو راوان نفسه وقد لجأ الى هذه الحيلة بمساعدة الشياطين من اجل ان يحرم رام من زوجته . ويصدر راوان نفخة من شفتيه فتحضر عربة تجرها خيول طائرة فيضع سيتا فيها ويطير الى مملكته .

انتصارا رام على رامان (الدوشار)

كان راوان في ما مضى ملكا عظيما متمكنا في العلم والمعرفـة . حتى قيل ان راسه المليئه بالحكمة تعادل رؤوس عشرة من اعظم حكماء العالم . وكان مؤمنا تقيا مصليا عادلا فاحبه شعبه وتعلق به . ولكن الغرور تملكه حتى تحول رغم ذكائه ومعرفته الى شيطان رجيم وملك فاسق عربيـد يطارد النسـاء ويقيم حفلات المجون في كل مكان من مملكته .

حمل راوان سيتا الى بلاطه . وطلب منها ان تقبلـه زوجـا لها . فرفضت ، فسجنها ، وامهلها شهرا واحدا لتقرر الزواج به والا قتلها .

لدى عودة رام ولاكشمان الى الكوخ وجداه خاليا . فبحثا طويلا عن سيتا دون ان يعثرا على اثر لها . ولكن طائر العقاب اقترب من رام واخبره انه رأى عربة بجياد مطهمة تطير خلال السحب وعلى متنها رجـل وامراة تشبه سيتا . واقترب قرد جميل الهيئة من رام . وكان هذا على علاقة طيبة بحيوانات الغابة . وطلب منه السماح له بالبحث عن سيتا في الممالك المجاورة فاذن له وبدا « هانومان » وهو اسم القرد رحلة بحث طويلة حتى عثر على سيتا في مملكة لانكا سجينه في قصر راوان .

عاد القرد بالنبأ الى راما فاعطاه هذا خاتما ليحمله الى سيتا فتطمئن اليه ، وحين تقابل هانومان وسيتا واراها الخاتم ارتاحت له ، واعطتـه سوارا ليسلمه الى رام ويقول له : « ان سيتا مازالت على عهدها قوية ثابته على حبك ، وزوجة وفيه لك الى الابد » .

صمم رام على الخروج الى مملكة لانكا واستعادة سيتا يعاونه في ذلك اخوه لاكشمان . وحشد هانومان جيشا جرارا من الاف القـردة انضم به الى رام ولاكشمان لمساعدتهما في قتال الملك الطاغية راوان .

وحين وصل رام واعوانه الى مشارف لانكا ابى اهلها قتاله لانـه (آلـه) وقالوا لراوان : « حينما يأتي الموت لا احد يتمكن من وقفه . لن نقاتل الاله رام » .

ولكن القتال بدأ على شكل مبارزة . برز رام الى الميدان يطلب قتال راوان . فبرز اخو راوان فقتله رام . ثم برز « ميجنـات » ابن راوان فلقي مصير عمه . عندما استبد الغضب براوان ، فبرز الى رام وتعاركا طويلا . وكانت رعية راوان تراقب القتال متألمة لانهم يعلمون انه لابـد مقتول على يـد الاله رام وكانوا يحبون ملكهم لماضيه العريق في العـدل

والحكمة ، حتى ان الاله الاكبر حباه بشراب الاله فلا يقتله احد الا اذا اصاب موضعا صغيرا من بطنه(١) . والحق ان رام تغلب عليه مرارا دون ان يتمكن من قتله . قطع راسه غير مرة ولكنه كان ينبت له رأس جديد ويستأنف القتال ، وكذلك الحال بالنسبة الى اعضائه الاخرى . الى ان تسلل الاخ الصغير لراوان ودنا من رام وسجد بين يديه قائلا : « اعلم انك اله . لذلك ساخبرك بسر بقاء اخي حيا . وحدد له الموضع من بطن راوان حيث مقتله » وهكذا تمكن رام من راوان وطعنه في ذلك الموضع . وقبل ان يموت نادى رام اخاه لاكشمان : « خذ يا اخي بعض الحكمة من فمه قبل ان تخرج روحه » فيسرع لاكشمان الى راوان يقتبس منه الحكمة والمعرفة اللتين اشتهر لاكشمان بهما من بعده .

وقبل ان يغادر رام مملكة لانكا ، ينصب الاخ الاصغر لراوان ملكا عليها ، ثم يعود هو وزوجته واخوه وجموع القردة التي قادها هانومان ، الى الغابة ، على ان اقامته في الغابة لم تطل . فبعد عشرين يوما على انتصاره واستعادته زوجته تكتمل مدة نفيه . فيعود الى مملكة ابيه حسبما وعد اخاه ويستقبله الناس استقبالا حافلا ، ويتوج ملكا مكان اخيه الذي تنازل له عن العرش كما وعد .

(١) هناك تشابه بين هذا الموضوع واسطورة سيجفريد الالمانية وسيجفريد ايضا اكتسى جسمه بمادة قرنية بعد ان استحم في دم التنين . ولم يمكن اصابته الا في موضع على كتفه سقطت عليه ورقة شجرة اثناء استحمامه . فبقى هذا المكان ضعيفا .

والدوشار هو العيد الذي يحتفل فيه الهندوس بذكرى انتصار رام على راوان .

اما التماثيل الثلاثة التي يحرقونها في هذه المناسبة فهي تماثيل راوان واخيه وابنه الذين قتلهم رام .

والديوالي هو عيد انتهاء مدة نفي رام وعودته الى شعبه . وهم يحتفلون بهذه المناسبة ثلاثة ايام متتالية لا ينقطعون فيها عن اطلاق المفرقعات والالعاب النارية واقامة الحفلات والولائم والاعراس . كما يوزعون الحلوى ويتبادلون بطاقات المعايدة وينيرون الشوارع بالمصابيح الكهربائية ويوقدون الشموع في المعابد والبيوت منفقين على ذلك كله اموالا طائلة تعبيرا عن ابتهاجهم الذي لا حد له بعودة الاله رام .

نهايـة سـيتا المحزنـة

على ان القصة لم تنته بعد . فبعد عودة رام كثر اللغط حول سيتا، واخذ المشككون يشيعون انها لم ترجع نقية من قصر راوان . ويصدق اقاويلهم فيسوم زوجته العذاب ويعرضها لمحنة النار فيلقيها حيه فيها ولكنها تخرج منها سليمة . ولكن المشككين يستأنفون بث سمومهم فينقاد لهم رام مرة اخرى . وهكذا نفي سيتا الى الغابة حيث تلد طفلين يصبحان منشدين جوالين يطوفان في البلاد مرددين قصـة والدتهما البريئـة المظلومة . ويتعرف رام على ولديه ويندم على ما فعله بسيتا ، وقد ظل طيفها يلازمه منذ اقصاها بعيدا في الغابة . فيبعث برسالة اليها مـع ولديه يطلب منها العودة . ولكنها وقد تحطم قلبها حزنا ويأسا تموت في عزلتهـا .

تنتشر تماثيل رام وصوره ــ التي تقرب هيأته من هيئة الانثى ــ وصور هانومان القرد في المعابد والبيوت . وله قدسية خاصة في الديانة الهندوسية . ولا ترى معبدا ليس فيه تمثال للالـه رام . وفي بيـوت
الهندوسية . ولا ترى معبدا ليس فيه تمثال للالـه رام . وفي بيـوت
وتنتشر روائح البخور . ولا تأكل الاسرة من اى طعـام ما لم تباركـه الالهه . وتتم المباركة بان يدخل الطعام الى المحراب ويترك فيه بضـع دقائق ثم يخرج منها لتأكله الاسرة مطمئنه الى مباركة الالهه له . وفـي بعض البيوت اسرة خاصة بالالهه . والعادة ان يحمل رب الاسرة تماثيل الالهة ويمددها في تلك الاسرة ذات الاغطية الحريرية قبل ان يخلد الـى النوم مطمئنا الى نوم الالهه . وهذه الطقوس العريقة في القدم لم يطرأ عليها اي تغيير منذ الاف السنين ، وما تـزال موجـودة حتى في منازل المثقفين منهـم .

والى جانب راما يقدس الهندوس اخويه لاكشمان وبارات والقرد هانومان ، ويعلقون صورهم مزينة باكاليل الزهور في المحلات والمتاجرة والمكاتب والمؤسسات الرسمية والخاصة .